الهيكسوس

مدى توغلهم في مصر

للدكتور باهور لبيب

تحدثنا في مقالين سابقين (تفضل المقتطف بطبعهما في جزء فبراير ١٩٤٢ وفي جزء يونيو من العام نفسه) عن أصل الهيكسوس وموطنهم الاول ثم عن صفة الهيكسوس ومدة حكمهم. والآن ننتقل الى الكلام عما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية ثم مطاردتهم منها

يحدثنا المؤرخ مانيتون أن «الهيكسوس استولوا على مصر بسهولة وبغير حرب لأن أهل مصر كانوا في ثورة وهيجان» وكلام مانيتون صحيح تؤيده مقارنة الآثار، إذ أننا نرى انه ابتداء من منتصف الأسرة الثالثة عشرة (أي حوالي سنة ١٧٥٧ ق. م [1]) عمت الفوضى البلاد وبدأ الضعف يدب في صميم الدولة

بردية Sallier I (وهي محفوظة في المتحف البريطاني وتاريخها يرجع الى عصر الملك منتاح ومحتوياتها ترجع رغم ذلك الى عصر الهيكسوس) تورد الفقرة الآتية: —

«حدث أنه كان في أرض مصر خطر أو وباء ولم يكن هناك سيد ما ملكاً بينهم». فيتضح لك من هذا النص التاريخي القديم ان مصر كانت في حالة فوضى وأن المصريين عجزوا عن إقامة ملك منهم مما سهّل فيما بعد على الهيكسوس الاستيلاء على مصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م.

وقد ساءت أحوال مصر السيئة مؤاتية للغزاة في وقت كان الضغط عليهم في بلادهم يزداد شدة ويدعو الى هجرتهم نتيجة لاغارات حلت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان مردها الى حركة اندفاع الشعوب الهندية الاوربية (الآرية) في آسيا وهجرتها ولاسيما وقد دخلوا مصر بخيلهم وعرباتهم وغير ذلك من الفنون الحربية التي يحملها المصريون فتفوّق

(١) راجع مقال الدكتور ن محمد: القانون والاقتصاد: العدد الأول من السنة الثانية عشرة صفحة ١٣٦

الهيكسوس من الوجهة الحربية سهّل لهم الاستيلاء على المدن والقرى فاستولوا الغزاة على ممفيس برغم موقعها الحربي المنيع . ونعلم ذلك من نص مكتوب بالهيراطيقي على لوحة معروفة بلوحة كارنارفون

وعلى لوحة كارنارفون هذه نصٌّ آخر يؤيد ردية سالبه السابقة الذكر وفيه أن « ملكاً من الجنوب من مليبة يدعى كامس جمع قواده وخاطبهم قائلاً : — « أريد أن أعرف ما هي قوتي اذا كان هناك أميرٌ في بلدة حات وعرت (عاصمة الهيكسوس) وأميرٌ آخر في بلدة كوش وأنا جالس مع أسيري وتوبي كل واحد منهما يملك نصيبة في أرض مصر ويشاركني الارض أنا لم أعطه الفرصة أن يصل حتى ممفيس ولكن أنظر الآن تقدمّ استيلاؤه على الاشمونين »[1]

فمن هذه النصوص نخرج بأن الهيكسوس توغلوا في الدلتا ثم استولوا على ممفيس ثم وصلوا في الديار المصرية الى بلدة الاشمونين

وفي ردّ القواد السابق الذكر على الملك كامس ، وهو ردٌّ نجده أيضاً على لوحة كارنارفون نجد أن هؤلاء القواد ردُّوا على الملك قائلين : « ولو أن الهيكسوس وصلوا الى بلدة القوصية (الواقعة بالقرب من دير وط) وأخرجوا ألسنتهم دفعةً واحدة سنكون في هدوء لأننا نملك مصر ولأن الفتيين قوية والجزء الأوسط من مصر في حيازتنا حتى القوصية وعلاوة على ذلك تحرث لنا أحسن أراضيهم ومواشينا ما زالت في الدلتا فالعلان ترسل الى خنازيرنا وكذلك لم يستولوا على مواشينا »

فمن هذا النص نرى انه يمكننا تعيين الجهة التي وصل اليها الهيكسوس في مصر وهي جهة القوصية بل يرينا هذا النص كذلك أن الهيكسوس في الدلتا لم ينزعوا ملكية الاراضي التي كان يملكها فيها أهل الصعيد . ومع ذلك فهناك طائفة من العلماء أمثال بتري وأدوارد ماير وبونكر تظن أن الهيكسوس توغلوا في الأراضي المصرية الى أبعد من ذلك ويستندون في رأيهم هذا الى قطعتين من الحجر وجدتا في جبلين (بالاقصر) عليهما أسماء الملك خيان وذلك أبوفيس

ولكننا لا نعد هذين الحجرين دليلاً كافياً على صحة ما تذهب اليه هذه الطائفة من العلماء وذلك لأننا نلاحظ أن الملوك الذين أتوا في العصور المتأخرة عن عصر الهيكسوس أخذوا آثار الهيكسوس ونقلوها من مكان الى آخر

(1) Pinches, Die Herrschaft der Hyksos, p. 17 ff.

فعلى سبيل المثل تقول : أن جاردنر وجد أثناء من الجرانيت للملك ما أومنرع أو قيس في مقبرة الملك المنتصب الآون في طيبة

اذن فلنمض في تأييد وجهة نظرنا ولنورد نصًّا آخر يؤيد نص لوحة كارنارفون وهو نص الملكة حتشبسوت في معبد Speos Artemidions بالقرب من القوصية فقد جاء فيه ان الملكة اصلحت معبد حاتحور وجددته وقد كان في جهة القوصية وكذلك المعابد الاخرى التي هدمها الهيكسوس حتى بلدة القوصية . وهو يحدثنا عن الظن أن معبد بلدة القوصية هو آخر معبد وصل اليه تخريب الهيكسوس . والنص بالطرف يقول : لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة هوراس (حات وعرت) في الدلتا» . فهذان النصان يؤيدان أن الهيكسوس وصلوا فقط إلى بلدة القوصية

ثم أننا نجد تعززاً لهذا الرأي في ادارة الحكومة في الاسرة الثامنة عشرة أي بعد طرد الهيكسوس مباشرة . فالمنطقة من بلدة القنتين الى ما بعد أسيوط بقليل أي الى ما يقرب من القوصية كانت من اختصاص أحد الوزراء ثم من القوصية الى اعلى الدلتا كانت من اختصاص وزير آخر

فالرأي ان المنطقة من الشمال الى القوصية هي المنطقة التي استولى عليها الهيكسوس لا سيما واننا نعلم أنه كان بين المنطقتين حدود محصنة ترجع الى ما قبل عصر الهيكسوس فوقف عندها تقدمهم في أغلب الظن . ونجد هذا التقسيم يستمر الى ما بعد عصر الهيكسوس فقد استمر الى عصر الملك بعنخي مما يدلنا على ان هذا التقسيم كان مهمًّا وأن هذه الحصون يصعب اقتحامها

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن اسم اسيوط بالمصرية القديمة معناه « الحاوس » وهذا مما يؤيد وجهة نظرنا ويرينا كيف تتوارث السياسة بالدين

وهناك سبب آخر يؤيد القول بأن الهيكسوس لم يستولوا على مصر بأجمعها وذلك أننا نعلم تمام العلم أن هناك ملوكاً وطنيين جعلوا مقرهم في طيبة وطردوا الهيكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد

ومن الطبيعي أن ملوك طيبة كانوا حول عهد الهيكسوس وليس في آخر حكمهم فقد فكان هناك في الواقع فريقان فريق الشمال وهم الهيكسوس الذين حكموا حتى بلدة القوصية وفريق آخر مصري حكم من القنتين الى القوصية وبذلك تكون غزوة الهيكسوس قد اقتصرت على الدلتا حتى بلدة القوصية فقط

القاهرة — جامعة فؤاد الأول